حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ

مُحَمَّدٌ اليَتِيمُ

كتبها
سمير حلبي

رسوم
عبد المرضى عبيد

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

٢٠٠٣/رقم الإيداع ٢٠٠٦٢

الترقيم الدولي I.S.B.N.977-361-193-0

جرافيك وفصل ألوان : عاصم سيد أحمد

عَـادَتْ «حَلِيمَةُ» إِلَى «مَكَّةَ» وَهِىَ تَحْمِـلُ مَعَهَا «مُحمَّدًا» لِتُعِيدَهُ إِلَـى أُمِّه، وَكَانَتْ دَهْشَـةُ السَّيِّدَةِ «آمِنَةَ» شَدِيدةً حِينَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا «حَلِيمَةُ» وَمَعَهَا «مُحَمَّدٌ». فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا فى عَجَبٍ وَقَالَتْ :

– مَاذَا حَدَثَ يَا «حَلِيمَةُ» ؟ لَقَد جِئْتِ قَبْلَ مَوْعِدِكِ! مَاذَا أَصَابَ «مُحَمَّدًا»؟

قَالَت «حَلِيمَةُ» فى هُدُوءٍ :

– إِنَّهُ بِخَيـرٍ يَاسَيِّدَتِى .. فَها هُـوَ بَيْـنَ يَدَيْكِ فِى أَتَمِّ صِحَّةٍ وَخَيْـرِ حَالٍ.

سَألتْها «آمِنةُ» وَهِىَ لا تُخْفِى لَهْفَتَها وَقَلَقَها :

- مَاذَا حَدَثَ ؟! .. أخْبِرينى يا «حَلِيمَةُ» !!

قَالَتْ «حَلِيمَةُ» وَهِىَ تَنْظُرُ إلَى «مُحَمَّدٍ» فِى حُبٍّ وَحَنَانٍ :

- فِـى الحَقِيقَـةِ لَقَدْ حَدَثَ شَـىءٌ عَجِيـبٌ لِمحَمَّـدٍ دَفَعَنِى إلَى التَّعْجِيلِ بِإعادَتِهِ إلَيْكِ .

نَظَرَتْ «آمنَةُ» إلَيهَا فِى دَهْشَةٍ، بَينَمَا رَاحَتْ «حَلِيمَةُ» تَقُولُ :

– لَقَدْ كُنْتُ جَالِسَةً مَعَ زَوْجِى «الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى»، وَفَجْأَةً دَخَلَ علىَّ ابْنِى وَهُوَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ:

– أدْرِكُوا أخِى .. أدْرِكُوا «مُحَمَّدًا»!!

فَلَمَّـا سَـأَلْنَاهُ عَمَّا حَدَثَ أَخْبَرَنَـا أَنَّه رَأى رَجُلَينِ يَلْبَسَـانِ ثِيَاباً بَيْضَـاءَ، قَدْ أَخَذَاهُ فَأَرْقَدَاه عَلى الأرضِ، وشَـقَّا صَدْرَهُ، ثُمَّ أَخرَجَا شَيئًا مِنْهُ.

أَكْمِلِيْ يا «حَلِيمَةُ».

- أَسـرَعْتُ أَنَـا وَزَوجِى عَلَى الفَوْرِ إِلَى «مُحَمَّـدٍ»، فَوَجَدْنَاهُ قَدْ تَلَـوَّنَ وَجْهُهُ مِنَ الخَوْفِ والفَـزَعِ، فَأَخَذْنَا نُطَمْئِنُهُ وَنُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ،

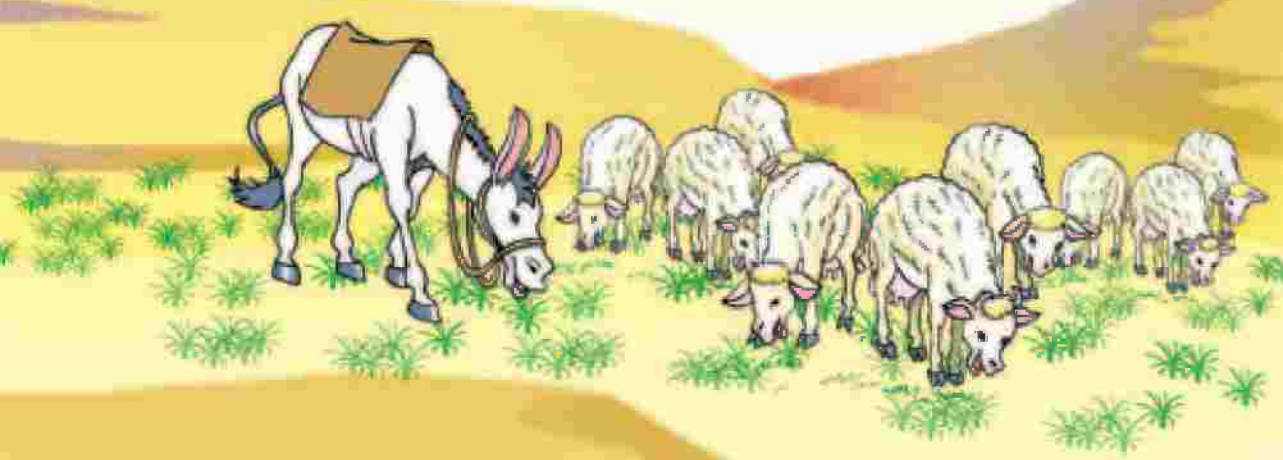

حَتَّـى ذَهَبَ عَنْهُ الخَوْفُ، ثُمَّ رَأَيْنَا أَنْ نُعِيدَهُ إِلَيْكِ، فَإِنَّا لا نَأْمَنُ عَلَيْهِ وَنَخَافُ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِسُوءٍ أَوْ يُصِيبَه مَكْرُوهٌ.

اقْتَرَبَتْ «آمِنَةُ» مِن «مُحَمَّدٍ» ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تَحْتَضِنُه بِحُبٍّ وَحَنَانٍ:

– واللَّهِ إِنَّ ٱبنِى هَذَا مُبَارَكٌ .. وَقَدْ رأَيتُ فِيهِ مِنَ الدَّلائِلِ والبِشَارَاتِ مَا يَمْلأ نَفْسِى رِضًا بِهِ وَأَمْنًا عَلَيْهِ .

وانْصَـرفَتْ «حَلِيمَـةُ» عائدةً إلَى دِيَـارِ قَوْمِها، بَعْـدَ أَنْ أعَادَتْ «مُحَمَّداً» إلَى احْضَانِ أُمِّه.

أرَادَتْ «آمِنَـةُ» أَنْ تَأخُـذَ «مُحَمَّداً» إلَى «المَدِينَـةِ» لِزِيَارَةِ أَخْوَالِ أبِيـه مِنْ «بَنِى النَّجَّـارِ»، وَكَانَتْ فَرْحَةُ «مُحَمَّدٍ» غَامِرَةً وَهُوَ يَشْـعُرُ بِحنَـانِ أُمِّـه وَحُبِّها لَـهُ وَعَطْفِهَا عَلَيْـهِ، فَلَمْ يُفَارِقْهـا لَحظَةً طَوَالَ تِلْـكَ الرِّحْلَـةِ الشَّـاقَّةِ عَبْـرَ الصَّـحْراءِ الطَّويلَةِ المُوحِشَةِ، حَتَّى وَصَـلُوا إلَى دِيَـارِ «بَنِى النَّجَّـار»، وَهُنَـاكَ اسْـتَقْبَلَهُ الجَمِيـعُ بِالـوُدِّ والحَفَـاوةِ، وَقَدْ وَجَـدُوا فِيهِ العِوَضَ عَنْ أبِيـهِ الذِى مَـاتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى وَحِيدَهُ.

انْقَضَتْ أيَّامُ «آمِنَةَ» وَ«مُحَمَّدٍ» فِى المَدِينَةِ، فَقَرَّرَتِ العَوْدَةَ بِهِ إِلَى «مَكَّة» لَكِنَّهَا تُوفِّيَتْ فِى الطَّرِيقِ، وَدُفِنَتْ بِالقُرْبِ مِنَ «المَدِينَةِ» .

وَعَـادَ «مُحَمّدٌ» وَحِيـدًا إِلَـى «مَكَّةَ» بَعْدَ أَنْ فَقَدَ أُمَّهُ، يَبْكِى حُزْنًا لِفِراقِهَا، وَقَدْ تَرَكَ اليُتْمُ آثَارًا مُؤْلِمَةً مِنَ الحُزْنِ والأسَى فِى قَلْبِهِ.

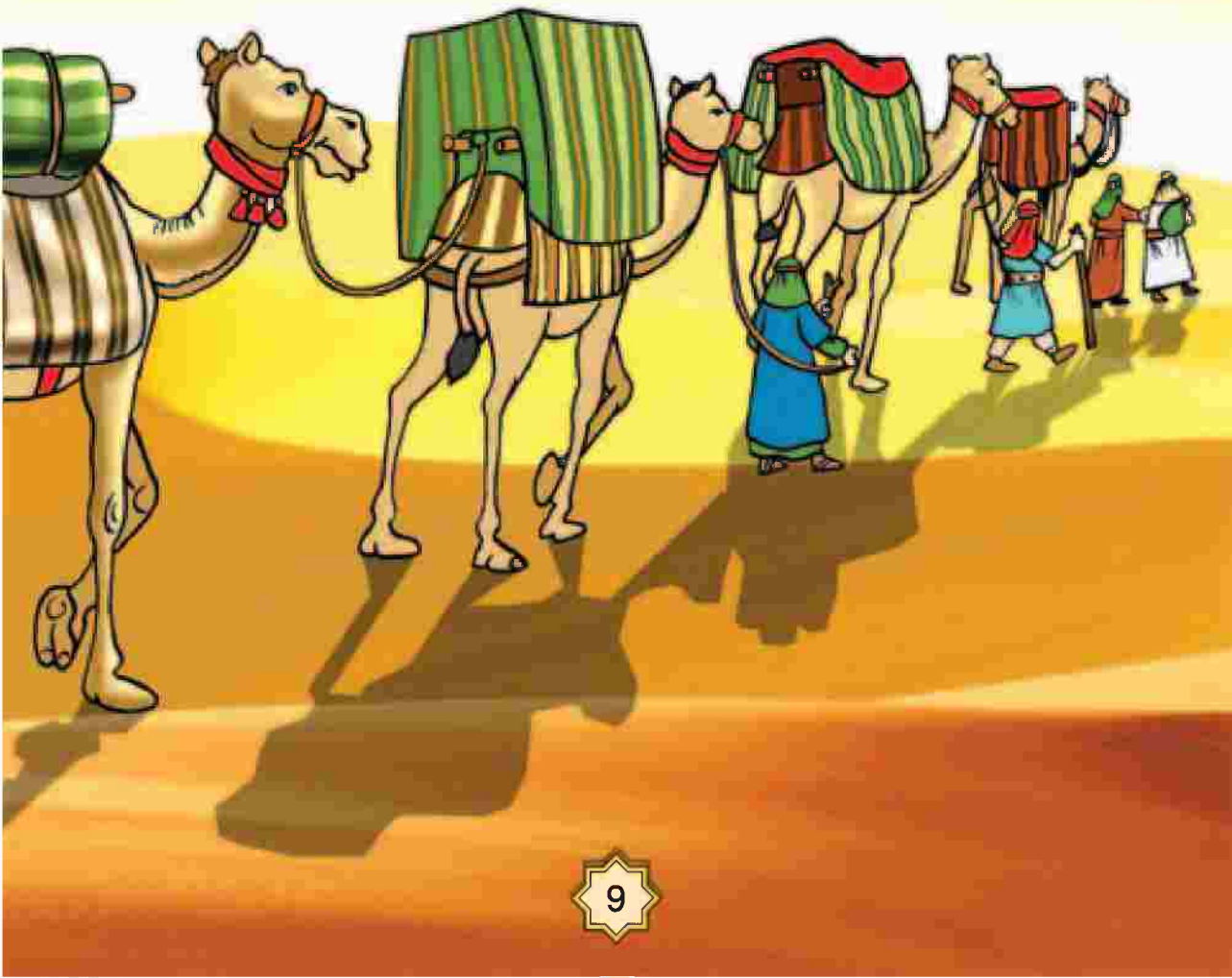

أَرَادَ «عَبْـدُ المُطَّلِبِ» جَدُّ «مُحَمَّـدٍ» ~ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ آلامَ اليُتْمِ وأَحْـزَانَ الوَحْدَةِ، فَأَحَاطَهُ بِحُبِّهِ وَرِعَايَتِهِ، وَعَوَّضَـهُ بِحَنَانِهِ وعِنَايَتِهِ عَـنْ فَقْدِ أَبَوَيْهِ، وَتَعَلَّقَ «مُحَمَّدٌ» بِجَدِّهِ، فَصَـارَ لا يَكَادُ يُفَارِقُهُ حَتَّى فِى مَجالِسِهِ مَعَ كِبَارِ قَوْمِهِ فِى مُنْتَدَيَاتِ «قُرَيْشٍ» وَمَجالِسِها .

لكنَّ الأيَّامِ كَانَتْ تُخْفِى أَحْزَانًا جَدِيدَةً لِمُحَمَّدٍ، فمَا لَبِثَ أَنْ تُوفِّى جَـدُّهُ «عَبْـدُ المطَّلِـبِ»، وَلَـمْ يَكُنْ عُمْـرُ «مُحَمَّدٍ» قَدْ جَـاوَزَ الثَّامِنَةَ، فَتَجَدَّدَتْ آلامُهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَعَرَفَتِ الأحزانُ طَرِيقَها إِلَـى قَلْبِهِ مِنْ جَدِيدٍ .

لَـمْ يَكُـنْ «مُحَمَّدٌ» يَمِيـلُ إِلَـى حَياةِ اللَّهْـوِ وَالفَرَاغِ التِى اعْتَادَها أَقْرَانُه مِنْ فِتْيانِ «مَكَّةَ»، فَهُوَ لَـمْ يَسْجُدْ يَوْمًا لِصَنَمٍ كَمَا يَفْعَلُ أَبْنَاءُ «مَكَّةَ»، وَلَمْ يُشَارِكْ يَوْمًا فِـى مَجالِـسِ اللَّهْوِ التِى انْتَشَـرَتْ فِى «مَكَّةَ» وَغَيْرِها، وإِنَّما كَانَ مِثَالاً للصِّدْقِ والأَمَانَـةِ وَحُسْـنِ الخُلُقِ حَتَّى اشْـتُهِرَ بِذَلِكَ بَيْنَ أَهْلِ «مَكَّةَ» .

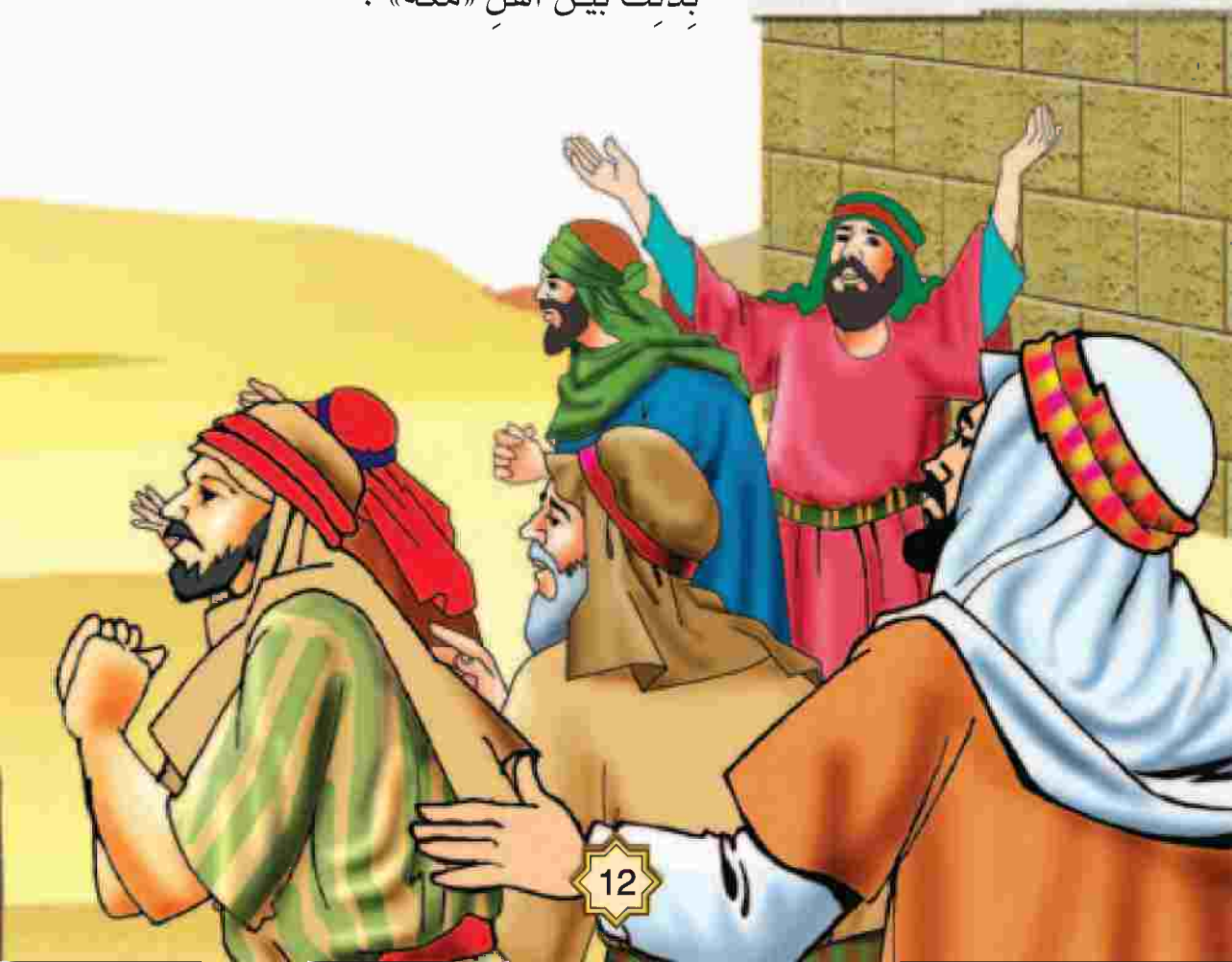

بَعْدَ وَفَاةِ «عَبْدِ المُطَّلِبِ» انْتَقَلَ «مُحَمَّدٌ» إِلَى بَيْتِ عَمِّهِ «أَبِي طَالِبٍ»، وكَانَ «أَبُو طَالِبٍ» فَقِيراً قَلِيلَ المَالِ، فَبَارَكَ اللهُ لَهُ بِفَضْلِ رِعَايَتِهِ هَذَا اليَتِيمَ المُبَارَكَ، وَوَجَدَ «مُحَمَّدٌ» فِي عَمِّهِ مِنَ الحُبِّ والرِّعَايَةِ مَا عَوَّضَهُ عَما فَقَدَهُ مِنْ حَنَانِ جَدِّهِ لَهُ وَعَطْفِهِ عَلَيْهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِ.

وَحِينَمَا بَلَغَ «مُحَمَّدٌ» الثَّانِيَةَ عَشَرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، أَرَادَ عَمُّهُ أَنْ يَخْرُجَ بِتِجَارَةٍ إِلَى «الشَّامِ»، فَتَعَلَّقَ بِهِ «مُحَمَّدٌ»، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِى الخُرُوجِ مَعَهُ، فَرَقَّ لَهُ عَمُّهُ، وَأَخَذَهُ مَعَهُ، وَكَانَتْ تِلْكَ الرِّحْلَةُ هِى أَوَّلَ رِحْلَةٍ لِمُحَمَّدٍ إِلَى بِلادِ الشَّامِ، وَسَارَتِ القَافِلَةُ فِى طَرِيقِها تَعْبُرُ الصَّحَارِى والوِدْيَانَ حَتَّى وَصَلَتْ إِلى مَشَارِفِ الشَّامِ بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ شَاقَّةٍ.

تَوَقَّفَتِ القَافِلَةُ عِنْدَ أَحَدِ الأَدْيِرَةِ عَلَى أَطْرَافِ الشَّامِ، كَمَا تَعَوَّدَتْ قَوَافِلُ العَرَبِ أَنْ تَفْعَلَ فِى طَرِيقِ رِحْلَتِها كُلَّ عَامٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِم الرَّاهِبُ «بَحِيرَا» يَسْأَلُهم عَنْ أَخْبَارِ «مَكَّةَ» وَأَخْبَرَهُم عَنْ قُرْبِ ظُهُورِ نَبِيٍّ مِنَ العَرَبِ فِى هَذَا الزَّمَنِ، كَمَّا بَشَّرَتْ بِذَلِكَ كُتُبُ أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ النَّصَارى وَاليَهودِ.

وَحِينَمَا رَأى «بَحيرا» «مُحَمَّدًا» عَرَفَهُ مِنْ بَعْضِ أَوْصَافِهِ التِى ذَكَرَتْهَا كُتُبُهم المُقَدَّسَةُ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ النَّبِىُّ المُنْتَظَرُ، فَسَأَلَ عَمَّنْ جَاءَ مَعَهُ، فَلَمَّا دَلُّوهُ عَلَى عَمِّه أَخْبَرَهُ أَنَّ هَذَا الغُلامَ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَنَصَحَهُ بِالرُّجُوعِ بِهِ إِلَى «مَكَّةَ»، وَحَذَّرَهُ مِنَ اليَهُودِ، وَبَعْدَ رِحْلَةٍ قَصِيرةٍ فِى بِلادِ «الشَّامِ» عَادَ «مُحَمَّدٌ» إِلَى «مَكَّةَ» لِيَبْدَأَ مَرْحلَةً جَديدَةً مِنْ حَيَاتِهِ.